

الفصل العاشر

السينما التسجيلية وثورات الربيع العربي

السينما التسجيلية وثورات الربيع العربي



منذ اليوم الأول للمظاهرات بدأ التوثيق للثورات ولكل ما كان يحدث في الميادين من حركات احتجاجية سواء بتونس أو بمصر ، على أيدي شباب استغل الفرصة ، أخذ الكاميرا وبدأ يصور في تلك اللحظات الهامة والحاسمة في تاريخ الأمة، ربما ليس بنية التوثيق، غير أن التوثيق في النهاية تحقق سواء بشكل إرادي أو غير إرادي .

وقد واكبت كاميرا العام والخاص يوميات الثورة، باستخدام التكنولوجيات الحديثة كالموبايل، وهذا ما ساعد على توثيق اللقطات الحية والصورة الحقيقية للأحداث فور وقوعها مما يعطي مادة قوية جدا للمخرجين وصناع الأفلام الوثائقية للعمل على هذه المادة و تصنيفها والبدء في رواية ما حدث سينمائيا في المستقبل القريب أو البعيد، كون السينما على وجه الخصوص والفن عموما اليوم أصبح أرشيف معترف به وبما يقدمه و بتأثيره المباشر في نفسية الأفراد، ما دام به دليل الصوت وصدق الصورة وما دام فيه مصداقية وتناول للحقائق التاريخية بكل موضوعية.

هل يكفي الاعتماد على ما صورته الشباب و ما تبثه القنوات والفضائيات يوميا كمصدر لتأريخ تلك الوقائع و الأحداث في شكل أفلام سينمائية مستقبلا و العودة إليها كلما دعت الضرورة ؟

أجاب الناقد المصري " أشرف نهاد" قائلا: " أعتقد أن الاعتماد على ما تبثه القنوات التلفزيونية وما يتم تداوله بشكل يومي ومستمر على الوسائط الاجتماعية، يمكن اعتباره إلى حد كبير مصدرا موضوعيا لتوثيق الأحداث يمكن العودة إليه مستقبلا، لكن في حال الاستعمال الجيد للمادة الموجودة بين أيديهم، ومن جهة أخرى هناك من المخرجين في مصر أو في تونس من صور ما حدث في ميادين التحرير بكاميراتهم لأرشيفهم الشخصي، لكن يبقى الأهم هو مشاركتهم في هذه الثورات والاحتجاجات الشعبية فيكفي التزامهم بالمهنية في التصوير والتوثيق وهذا لم يقتصر على المخرجين بل أيضا بالنسبة للثوار والمحتجين .

و يصف الكثير من السينمائيين الأفلام التي صورت و أنتجت خلال الثورات الشعبية بالاستعجالية، لعدم تقيدها بشروط و مقاييس الصناعة السينمائية السليمة .

أنه من الضروري أن نوثق لما حدث من جانب الثوار والمحتجين فلا نستطيع أن نصل إلى ما حدث في الجانب الآخر وعند الطرف الآخر أي عند الحكام السابقين الهاربين أو المخلوعين و بالتالي سنأخذ وقت طويل لتقديم وجهات النظر، لكن على الأقل يجب أن نوثق ما حدث أو نوثق لمرور وما فعله زعماء أو قادة ومفجري هذه الثورات العربية التي يقول أعداؤها أنها ثورات بلا عقل وبلا قادة وأنا أختلف معهم تماما، بل كان هناك قادة فضلوا التنحي بنبالة و بأخلاق الفرسان عن قيادة هذه الثورات، وفي المقابل يجب أن نقدم رموز هذه الاحتجاجات بشكل سينمائي راقى يليق بأبطالها مثل خالد سعيد في مصر ومحمد بوعزيزي في تونس وغيرهما من الثائرين والتأثرات ضد سياسة الظلم و طغيان الحكام .

كيف تدخل الأحداث الأخيرة للثورات والمتغيرات التي تحصل يوميا للوجدان لكي تظهر وتترجم في شكل سيناريوهات، أفلام و قصص نابغة من عمق الحقيقة، لا تعتمد فقط على نقل الحدث ، و بالتالي يجب استغلال ذلك بشكل جيد ، فني وعقلاني، وهذا يتطلب وقتا ومسافة بين الحدث و صياغة السيناريو لينتج لنا مادة سينمائية، تكون قد أسهمت التكنولوجيات الحديثة وإلى حد كبير في تكوينها و بعث الصورة الفعلية لما يحدث على أرض الواقع، بعد أن أعطت التكنولوجيات المتطورة صدى بعيد للأحداث و فضحت الأنظمة الفاسدة، سهلت المأمورية و شكلت الطرف الثاني لنجاح الثورات رغم أن هذه الأخيرة لما قامت و الشعوب، خرجت و انتفضت وقالت "كفاية" في مصر و "ديقاج" في تونس، أو "ارحل" في اليمن، لم تكن الكاميرا شغالة بل الشباب هو من عرض نفسه و صدره لكل أشكال العنف^(١) .

وخرج العشرات من السينمائيين المصريين ليشاركوا في ثورة الخامس والعشرين من يناير في مصر عام ٢٠١١ م ، عبر ايمانهم بأن نضالهم الانساني ضد السلطة مستخدمين كاميراتهم الصغيرة ذات التقنيات الرقمية هو طريقته في المشاركة والكفاح و اعلان بغضهم للنسيان الذي طالما طمس شعبا بأكمله عبر تزييف "ذاكرته" طوال ثلاثين عاما .

(١) ضاوية خليفة ، سينمائيو الحرية : في توثيق للثورات الشعبية ، مقال متاح علي الرابط التالي :

<http://doc.aljazeera.net/magazine/٢٠١٢٤٩٩٢٣٢٩٥٣٣١٩/٠٤/٢٠١٢.html>

وأصبحت الكاميرات الرقمية "الديجيتال" التي تختزن الصور في ذاكرتها...الوسيلة السائدة اليوم أمام صناع الفيلم التسجيلي، ليس فقط بسبب رخص أسعارها، بل بسبب صغر حجمها وسهولة حملها وبالتالي القدرة على اقتحام العديد من الأماكن المزدحمة التي قد يشكل التصوير فيها مخاطرة ما، أو الأماكن الضيقة المرتفعة، أو غير ذلك من المواقف التي تشتعل فجأة بالأحداث المعقدة...لم يعد ينفع أن ينصب السينمائي كاميرا سينمائية واضحة كبيرة فوق حامل على الملأ ثم يقوم مساعدوه بضبط الإضاءة ووضع عدسات الضوء المناسبة، ثم استخدام العدسة المناسبة أكثر للحدث وضبط بؤرتها والتحكم في حجم اللقطة. إلخ فقد يكون الحدث قد بدأ وانتهى بينما المخرج ومساعدوه مازالوا يعدون العدة لتصويره!"

أنواع أفلام ثورات الربيع العربي :

توجد ثلاثة اتجاهات لتقسيم الأفلام التسجيلية لثورات الربيع العربي يمكن رصدها

علي النحو التالي :

الاتجاه الأول يقول : ثمة ثلاثة أنواع لطبيعة الوثيقة المصورة التي تم تسجيلها اثناء الثورة والتي تحولت فيما بعد إلى "المادة المحددة" التي شكلت المتن الرئيسي لأفلام التسجيلية التي انتجت عن الثورة وهذه الأنواع هي^(١) :

النوع الاول : الوثيقة التي التقطتها عبر المصادفة كاميرات التليفونات المحمولة والكاميرات الخاصة لأشخاص ليسوا من صناع الأفلام ولكنهم حاولوا تسجيل اللحظة لاحتفاظ بها في أرشيفهم الخاص او تحميلها على مواقع الانترنت كنوع من المقاومة وتوعية الواقع .

هذا النوع من الوثائق اصبح من الصعب التعرف على الشخص الذي قام بتسجيلها او توثيقها بعد حجم التداول الهائل للوثيقة عبر شبكة الأنترنت بل واعتباره ارشيفا عاما تم استخدامه في عشرات الافلام الوثائقية والمواد التليفزيونية التي تحدثت عن الثورة .

(١) رامي عبد الرازق ، قراءة في وثائقيات ثورة يناير 2011 ، مقال منشور علي الرابط التالي :

<http://doc.aljazeera.net/magazine/٢٠١٢٤٩٨٣٩٥٣٢٦٠٩٤٥/٠٤/٢٠١٢.html>

ومن أشهر تلك اللقطات الوثائقية على سبيل المثال لا الحصر :لقطة الشاب الذي يتحدى خرطوم الماء المنطلق من سيارة فض الشغب, لقطة رش المتظاهرين بالماء فوق كوبري قصر النيل, لقطة مقتل احد المتظاهرين بالسويس, لقطة دهس سيارة السفارة الأمريكية المسرعة لعدد من المتظاهرين, لقطة دهس عربة مصفحة لاحد المتظاهرين اسفل كوبري الجلاء, وبالطبع اللقطة الشهيرة لعملية اقتحام الجمال للميدان ومواجهة المتظاهرين لأحد راكبي الأحصنة في "موقعة الجمل" وانزاله من فوق الحصان وضربه .

ولأسف فإن اعتبار هذه اللقطات جزء من الأرشيف العام المتاح للجميع او ما يعرف بفكرة تحرير الوثيقة من سيطرة صانعها" جعلها تصبح تيمة كلاسيكية او نمطية في الكثير من الأفلام التسجيلية واستطاعت فقط افلام قليلة أن تنجو من فخ استخدامها المكرر والمفتعل .

النوع الثاني : الوثيقة المصورة التي سجلتها كاميرات صناع الافلام والسينمائيين الذين شاركوا او تواجدوا في الميدان اثناء وبعد الثورة .

العناصر المشتركة بين أغلب هذه الوثائق هي:

* إن قراءتها لم تتحدد سوى بعد انتهاء الحدث نفسه اي اكتمال الثمانية عشر يوما للثورة بتتحي الرئيس مبارك وهو ما نجده على سبيل المثال في افلام مثل "نصف ثورة" **لكريم الحكيم وعمر الشرقاوي**, ومولود في الخامس والعشرين من يناير **لأحمد رشوان**, وانا والاجندة **لنيفين شلبي**, فأغلب هذه المواد كانت مجرد أرشيف خاص بالمرجع لم يتم التعامل معه على اعتبار انه يمكن ان يشكل نواة او متن لفيلم وثائقي إلا عندما اتخذ الحدث شكل الثورة واتخذت الاحداث تطورها المذهل والمفاجئ.

* أنها تتنوع ما بين لقطات توثق وجهة نظر المخرج او السينمائي لما يحدث وقتما كان وأينما كان دون تخطيط منه او تتبع لمعلومة او شخص بعينه وانما مجرد جزء من حالة المشاركة/النضالية ، أو هي لقطات تم التقاطها له في الميدان وسط الحدث من خلال وجهة نظر اشخاص اخرين لكن كان هو محورها وبالتالي سعى للحصول عليها لضمها إلى أرشيفه مثلما فعل المخرج أحمد رشوان في فيلمه مولود في

الخامس والعشرين من يناير، أو هي لقطات قام المخرج بتصويرها لنفسه بنفسه كجزء من عملية قراءة الحدث عبر الذات.

* عدد قليل جدا من الوثائق المصورة التي التقطت خلال أحداث الثورة من قبل صناع الأفلام جاءت بشكل عالي الجودة تقنيا أو محدد الزوايا والاحجام بصريا بل أن اغلب المادة المصورة والتي كانت نواة الافلام جاءت حركة الكاميرا خلالها اقرب لحركة الكاميرا التي تصور الاخبار، حيث الكاميرا غير مستقرة والكادرات مهتزة والإضاءة شحيحة والقطعات المونتاجية حادة وغير منمقة ولا يوجد اهتمام بالتكوين أو الخط الوهمي أو النور والظل، بل أنه في بعض الأحيان قامت الكاميرا بالتصوير دون دراية من المخرج أو انتباه لما تقوم بتصويره!

لقد أصبحت الكاميرا الديجيتال اثناء الثورة ترى الحدث كما تراه هي وليس كما يراه المخرج ، وذلك بفضل الذاكرة الرقمية التي تحملها وصغر حجمها واحتياجها إلى مصادر إضاءة بسيطة وبقائها تعمل لساعات طويلة طالما لم يفرغ شحنها. وسوف نجد ان **نيفين شلبي** على سبيل المثال قد قامت ببناء جزء كبير من فيلمها "انا والأجندة" على لقطات التقطتها الكاميرا بنفسها وليس بتوجيه من المخرجة ولم تتبين نيفين نفسها طبيعة المادة المصورة ومساحتها وحجمها إلا بعد ان قامت بتفريغ الذاكرة ومن هنا تولد لديها الشعور بوجود نواة تصلح لصناعة فيلم وثائقي عن أحداث الثورة واتخذت من فكرة "الاجندة الخارجية" التي انتشرت كمصطلح في الأعلام الرسمي يشير إلى العمالة والخيانة اللذان كانا يوصف بهم ثوار الميدان اتخذت منها زاوية لتحليل الوضع السياسي بالميدان وقت الأحداث.

النوع الثالث : هي الوثيقة التي سجلها شخص اخر معلوم غير المخرج اثناء الأحداث بحكم طبيعة عمله(مصور صحفي او تليفزيوني) أو تواجدته في الاماكن التي شهدت المواجهات والوقائع الساخنة وقام المخرجين باستخدام تلك الوثيقة كمتن اساسي في افلامهم او كجزء من المتن وليس مجرد ارشيف او مادة مساعدة وهو ما نراه جليا في تجربة المخرج تامر عزت في الجزء الاول من فيلم "الطيب والشرس والسياسي" عندما قام بتوظيف الصور التي التقطتها احد المصورين الصحفيين اثناء

الصورة وصنع منها المتن الرئيسي لفيلمه "الطيب" عبر التركيز على الوثيقة المصورة وتكبيرها ودراستها وتحليل مشتملاتها.

ويتكون الطيب والشرس والسياسي"، من ثلاثة أجزاء تعرض في ساعة ونصف الساعة تقريبا: "الطيب"، والمقصود به الشعب المصري، من إخراج تامر عزت، و"الشرس"، في إشارة لجهاز الشرطة، من إخراج آيتن أمين، و"السياسي"، الذي يركز على الرئيس المخلوع حسني مبارك، من إخراج عمرو سلامة .

وبشكل عام، يعد الفيلم توثيقا سينمائيا مهما لثورة يناير سيحفظه التاريخ الذي لا يعترف بنشرات الأخبار، كما يقدم رؤية متزنة هادئة ليوميات وأحداث الثورة بعيدا عن التشنج السياسي ومحاولة استدراج تعاطف الجمهور بالمشاهد المؤثرة للشهداء والمصابين وعمليات الاعتداء المتعمد عليهم.. لكن ذلك لا يمنع أن عيون المشاهدين من الممكن أن تدمع تأثرا بعظمة المصريين التي ينجح الفيلم في التعبير عنها من دون ادعاء أو "زعيق" سينمائي يجيد مخرجون آخرون ممارسته .

وهناك الفيلم التونسي "ارحل" أو "الشعب يريد"، الذي أنجزه مخرجه **محمد الزرن** ، وهو أول فيلم تونسي تسجيلي طويل (٩٦ ق) يوثق يوميات الثورة التونسية.. وأهم ما فيه أنه ينسب الثورة إلى أصحابها الحقيقيين من الشباب المكافح الباحث عن لقمة عيش شريفة، والذي كان يعاني الظلم والتعنت تحت حكم بن علي ونظامه.. وفي الفيلم حكايات موجعة عن الباعة الجائلين من أمثال البوعزيزي الذين كانت البلدية تتعسف معهم وتستولي على بضائعهم وأهم وأغلى ما في جعبتهم (الميزان) بحجة عدم حصولهم على التراخيص اللازمة للبيع في الشارع، علما بأنهم كانوا يحصلون على بضاعتهم بالأجل، ويستأجرون العربة، أي لم يكونوا - في الحقيقة - يمتلكون شيئا^(١).

(١) عصام زكريا، التليفزيون تنظيم وحرفية والأفراد أكثر حرية، مقال متاح علي الرابط التالي :
http://doc.aljazeera.net/magazine/2012/07/201272121441671193.html

ويدين الفيلم محترفي اختطاف وركوب الثورات من الساسة ومسؤولي الأحزاب، الذين يمدون أياديهم لقطف ثمار الثورة من دون مراعاة حقوق من زرعوها ورووها بدمائهم.. وتتجلى الإدانة في صرخة تطلقها خالة الشهيد البوعزيزي قائلة: "لا نريد أن تقولوا (أم الشهيد راحت وأم الشهيد جاءت).. نريد حقوق هذا الشهيد وإخوانه".. ودعم الزرن فيلمه بشهادات عائلات الشهداء، خاصة عائلتي البوعزيزي وثاني شهداء الثورة حسين ناجي، بالإضافة إلى شهود عيان في عدة مناطق من تونس، ونقل صورة صادقة عن بعض الأحداث المأساوية والانفلات الأمني الذي ساد عقب تنحي الرئيس المخلوع عن السلطة^(٢).

الاتجاه الثاني يقول : تنقسم الأفلام الوثائقية المصنوعة عن ثورة يناير ٢٠١١ م إلى نوعين أساسيين هما :

النوع الأول يضم الأفلام : التي أنتجتها شركات إنتاجية سينمائية للأفلام الروائية أو الوثائقية ومؤسسات اعلامية على رأسها محطات التلفزيون و بعض الصحف المعروفة والهيئات الحكومية.

والنوع الثاني تضم الأفلام "المستقلة": التي أنتجها أفراد سواء كانت فقيرة انتاجيا أو توفر لها تمويل جيد عبر شركات انتاج سينمائية ، ومن المعروف أن كل فيلم يحتاج إلى بؤرة مصغرة وخيطا أساسيا تلتف حولهما المشاهد واللقطات. وهي الفضيحة التي غابت عن معظم الأفلام المستقلة .

الأفلام التي أنتجتها محطات التلفزيون المعروفة :

أفلام قناة الجزيرة الوثائقية : أنتجت قناة الجزيرة الوثائقية ما يزيد عن ثلاثين فيلما عن ثورة مصر منها عشرون فيلما تعتبر أجزاء أو حلقات متصلة بعنوان "يوميات الثورة المصرية"، وفيلم من ثلاثة أجزاء بعنوان "الطريق إلى التحرير"، وفيلما من جزئين بعنوان "من سيحكم مصر" عن انتخابات الرئاسة المصرية، بجانب عدد آخر

(٢) أسامة عبد الفتاح ، الربيع العربي يعلن سقوط "الروائي" وانتصار "الوثائقي" ، مقال منشور علي الرابط التالي :

من الأفلام التي تتناول مواضيع بعينها من الثورة مثل دور النساء فيها أو تأثير الفيس بوك عليها.

وكانت قناة الجزيرة الوثائقية أكثر القنوات اهتماما بتغطية الثورة في مصر يوما بيوم وساعة بساعة، وبالإضافة للمواد التي صورها مراسلوها شارك عدد كبير من المشاهدين بإرسال مواد إلى القناة لبثها، كما أنها تملك أرشيفا كبيرا من المواد المصورة للأحداث القديمة والمعاصرة. هذه الغزارة من الصور، والقدرة الانتاجية الكبيرة وفوق ذلك الطريقة التي تعمل بها قناة "الجزيرة الوثائقية" من شراء ودعم الأفلام التي تنتجها شركات صغيرة، كل ذلك مكن "القناة" من تنفيذ مشروع شبه متكامل لتغطية الثورة المصرية فيلما، من خلال تقسيمها إلى موضوعات ووحدات وأفكار هي الأقدر حتى الآن على استيعاب هذا الحدث العظيم.

أفلام قناة بي بي سي العربية : أنتجت قناة "بي بي سي العربية" بعد أيام من تنحي مبارك أوائل الأفلام التي صنعت عن الثورة، وهو التقرير الفيلمي "الثورة الضاحكة" فبالرغم من أنه تقرير إخباري تليفزيوني من الناحية الوظيفية إلا أنه أقرب لطبيعة الفيلم الوثائقي النموذجي أكثر من كثير من الأفلام التي صنعت عن ثورة يناير.

وفيما يتعلق بالأفلام التي أنتجتها هيئات حكومية مثل هيئة الاستعلامات أو المركز القومي للسينما في مصر فليس هناك ما يمكن ذكره ، وقد أثبتت هذه الهيئات الرسمية خصومتها للثورة وولائها المطلق للنظام المخلوع منذ اليوم الأول لقيامها، وحتى بعد شهور طويلة من سقوط النظام. ومن المذهل أن نعرف أن كلا الهيئتين لم ترسل كاميراتها إلى الميادين لترصد أهم حدث في تاريخ مصر الحديث! .

الاتجاه الثالث يقول : يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من فيديوهات الثورة ^(١) :

النوع الأول الفيديوهات الساخنة : وهي الفيديوهات التي أنتجت، على مستوى الشكل، في غالبها بواسطة هواتف محمولة ، أما على مستوى المضمون فإنها تحمل

(١) عبد الغني مندوب ، تحليل سمبولوجي وسوسيلوجي لنماذج من الصور المتحركة للثورات العربية ، مقال متوافر على الرابط التالي :

<http://doc.aljazeera.net/magazine/2011/06/2011621132552604168.htm> I

صوراً من قلب المعارك، حيث يعمّ القتل ويسود التعذيب، وحيث تنطوي عملية تسجيل هذه الفيديوهات على خطر الموت.

النوع الثاني : الفيديوهات الباردة : ويقصد بها مقتطفات من تغطية بعض القنوات الفضائية العربية، سواء الداعم منها والمساند للانتفاضات العربية كقناة الجزيرة، أو المعادي لها كالقنوات الرسمية لكل من ليبيا واليمن وسوريا. وتتميز هذه الصور، على مستوى الشكل، بكونها ملتقطة من قبل مصورين محترفين وبمعدات احترافية، أما على مستوى المضمون فإنها تتدرج في إطار الصراع السياسي بشكليه الصريح والمضمر بين الجهات الداعمة للتغيير في البلدان العربية أو المناهضة له، والمستعملة للصورة، والصورة المتحركة على سبيل التحديد كأداة حرب ومواجهة واستراتيجية صراع .

النوع الثالث : الأفلام القصيرة : وهي الأفلام القصيرة الموضوعة على الشبكة العنكبوتية، والتي تتميز بكل خصائص العمل الفني السينمائي من تأليف، وإخراج، وتمثيل، ورمزية، وجمالية فنية ؛ كفيلم الثورات العربية بجزأيه الأول والثاني من تأليف وإخراج "صفوان ناصر الدين".

لا يدعي هذا التصنيف البتة الإحاطة والشمولية، وإنما هو لا يعدو كونه مجرد نموذج تحليلي تمثيلي بالمعنى الفيبييري للكلمة، أي مجرد إطار تحليلي مقترح في إطار محاولة جمع شتات هذه الصور المتحركة وإنتاج المعنى الذي تحبل به، أو دعونا نقول من باب التنسيب، بعضاً منه على الأقل .

تدريبات عملية علي الفصل العاشر

١ - أرصد أنواع أفلام ثورات الربيع العربي ؟

٢ - هل تستطيع التمييز بين أنواع فيديوهات الثورة ؟

ضع علامة صح أمام الإجابة الصحيحة :

١ - فيلم ارحل هو أول فيلم تونسي تسجيلي طويل وثق يوميات الثورة التونسية

. ()

٢ - الكاميرات الرقمية "الديجيتال" وسيلة مهمة من وسائل توثيق ثورات الربيع

العربي () .

٣ - يعد فيلم الطيب والشرس والسياسي توثيقا سينمائيا مهما لثورة ٢٥ يناير في

مصر () .